

معانى الكلمات :

آمنوا : صدقوا بقلوبهم .

جامع : مهم .

دعاء الرسول : نداءكم له .

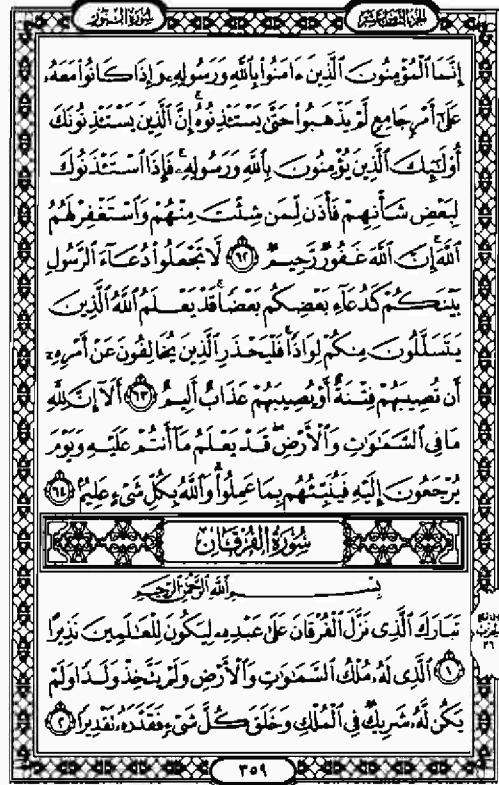
يتسللون : ينصرفون خفية .

لو اذا : يستر بعضهم بعضا .

يخالفون : يعرضون .

تبارك : تعالت صفات الله .

قدّره : هياه لما يصلح له .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نتعرف على تنظيم العلاقات بين أسرة المسلمين وقائدها محمد ﷺ .

٢ - أن نعلم عاقبة المنافقين الذين يتبعون نهجا غير نهج الإسلام .

٣ - أن نتعرف على مظاهر ربوبية الله تعالى الموجبة لألوهيته .

المحتوى التربوي :

ينتقل السياق من تنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء ، إلى تنظيمها بين الأسرة الكبيرة أسرة المسلمين ورئيسها وقائدها محمد رسول الله ﷺ ، وإلى آداب المسلمين في مجلس الرسول ، وأيا ما كان سبب نزول هذه الآيات فهي تتضمن الآداب النفسية التنظيمية بين الجماعة وقائدها ، هذه الآداب التي لا يستقيم أمر الجماعة إلا حين تنبع من مشاعرهم وعواطفهم وأعماق ضميرهم ، ثم تستقر في حياتهم فتصبح تقليداً متبعاً وقانوناً نافذاً ، وإلا فهي الفوضى التي لا حدود لها ، فالؤمنون يؤمنون بالله ورسوله لا الذين يقولون بأفواههم ثم لا يحققون مدلول قولهم - ولا يطيعون الله ورسوله ، وإذا كانوا معه على الأمر الجامع الهام الذي يقتضي اشتراك الجماعة فيه ،

لرأى أو حزب أو عمل من الأعمال العامة ، فلا يذهب المؤمنون حتى يستأذنوا إمامهم كى لا يصبح الأمر فوضى بلا وقار ولا نظام .

وهؤلاء الذين يؤمنون هذا الإيمان ، ويلتزمون هذا الأدب ، لا يستأذنون إلا وهم مضطرون ، فلهم من إيمانهم ومن أديهم عاصم ألا يتخلوا عن الأمر الجامع الذى يشغل بال الجماعة ، ويستدعى تجمعها له ، ومع هذا فالقرآن يدع الرأى فى الإذن أو عدمه للرسول ﷺ رئيس الجماعة ، بعد أن يبيح له حرية الإذن ، يدع له الرأى فإن شاء أذن وإن شاء لم بأذن ، فيرفع الحرج عن عدم الإذن ، وقد تكون هناك ضرورة ملحة ، ويستبقى حرمة التقدير لقائد الجماعة ؛ ليوازن بين المصلحة فى الانصراف ، ويترك له الكلمة الأخيرة فى هذه المسألة التنظيمية يديرها بما يراه .

ومع هذا يشير إلى أن مغالبة الضرورة وعدم الانصراف هو الأولى ، وأن الاستئذان والذهاب فيها تقصير أو قصور يقتضى استغفار النبى ﷺ للمعتذرين ، وبذلك يقيد ضمير المؤمن فلا يستأذن ، وله مندوحة لقهر العذر الذى يدفع به إلى الاستئذان .

ويلتفت السياق إلى توفير الرسول ﷺ عند الاستئذان ، وفى كل الأحوال ، فلا يدعى باسمه : يا محمد ، أو كنيته : يا أبا القاسم . كما يدعو المسلمون بعضهم بعضا ، إنها يدعى بشريف الله له وتكريمه : يا نبى الله ، يا رسول الله ، فلا بد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله ﷺ حتى تستشعر توفير كل كلمة منه وكل توجيه ، وهى لفظة ضرورية ، فلا بد للمربى من وقار ، ولا بد للقائد من هبة ، وفرق بين أن يكون هو متواضعا هينا لنا ، وأن ينسوا هم أنه مربيهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض ، يجب أن تبقى منزلته فى نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم فى قرارة شعورهم ، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير .

ثم يحذر المنافقين الذين يتسللون ويذهبون بدون إذن ، يلوذ بعضهم ببعض ، ويتدارى بعضهم ببعض ، فعين الله عليهم ، وإن كانت عين الرسول لا تراهم ، وهو تعبير بصور حركة التخل والتسلل يحذر من المجلس ، ويتمثل فيها الجبن عن المواجهة ، وحقارة الحركة والشعور المصاحب لها فى النفوس ، وإنه لتحذير مرهوب وتهديد رعيب ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ، ويتبعون نهجاً غير نهجه ، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة ، ليحذروا أن تصيبهم فنة تضطرب فيها المقاييس ، وتختل فيها الموازين ، وتشتك فيها النظام ، فيختلط الحق بالباطل ، والطيب بالخيث ، وتفسد أمور الجماعة وحياتها ، فلا يأمن على نفسه أحد ، ولا يقف عند حده أحد ، ولا يتميز فيها خير من شر ، وهى فترة شقاء للجميع فى الدين أو فى الآخرة جزاء المخالفة عن أمر الله ، ونهجه الذى ارتضاه للحياة .

ويختتم هذا التحذير ، ويختتم معه السورة كلها بإشعار القلوب المؤمنة والمنحرفة بأن الله مطلع عليها ، رقيب على عملها ، عالم بما تنطوى عليه وتخفيه ، وهكذا تختتم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله ، وتذكيرها بخشيته وتقواه ، فهذا هو الضمان الأخير ، وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهي ، وهذه الأخلاق والآداب التي فرضها الله في هذه السورة ، وجعلها كلها سواء .

سورة الفرقان

هذه السورة المكية تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول الله ﷺ وتسرية وتطمين له ، وتقوية وهو يواجه مشركى قريش ، وعنادهم له ، وتطاولهم عليه ، وتعتهم معه ، وجداهم بالباطل ، ووقوفهم في وجه الهدى وصددهم عنه .

يبدأ الشوط الأول منها بتسبيح الله وحده على تنزيل هذا القرآن من عنده ، وعموم الرسالة إلى البشر جميعا ، ووحدانية الله المطلقة ، وتنزيهه عن الولد والشريك ، وملكيته لهذا الكون كله ، وتدبيره بحكمة وتقدير ، وبعد ذلك كله يشرك المشركون ، ويفترى المفترون ، ويجادل المجادلون ، ويتناول المتناولون ، والتبادل تفاعل من البركة يوحى بالزيادة فيها والفيض والرفعة جميعا .

يقول صاحب الظلال : « وساء فرقانا بما فيه من فارق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، بل بما فيه من تفرقة بين نهج في الحياة ونهج ، وبين عهد للبشرية وعهد ، فالقرآن يرسم منهجا واضحا للحياة كلها في صورتها المستقرة في الضمير ، وصورتها المثلة في الواقع » .

ويرسم الغاية من تنزيل الفرقان على عبده ، وأنه رسالة للعالمين وطبيعة هذه الرسالة طبيعة عالمية شاملة ، ووسائلها وسائل إنسانية كاملة ، ونهايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد ، ومن نهج على نهج عن طريق هذا الفرقان الذي نزله صاحب السيطرة المطلقة على السموات والأرض ، فهو سبحانه باق لا يفنى ، قادر لا يحتاج إلى ولد أو شريك في الملك ، والكل شاهد وعلى وحدة التصميم ووحدة الناموس ووحدة التصريف ، وقد قدر سبحانه قدر كل شيء وحجمه وشكله ، وقد قدر وظيفته وعمله ، وقد قدر زمان ومكانه ، وقد تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - وجوب طاعة الرسول ﷺ ، وحرمة مخالفة أمره ونهيه ، وتوقيفه في حياته وبعد مماته .
- ٢ - المتجرى على الاستهانة بسنة رسول الله ﷺ يخشى عليه أن يموت على سوء الخاتمة .
- ٣ - ضرورة التفكير والبحث في مختلف العلوم للتعرف على حكمة الله تعالى وبديع صنعه .

معاني الكلمات :

نشورا : بعثا بعد الموت .

زورا : كذبا عظيما .

أساطير : أكاذيب .

تملى : تقرأ .

مسحورا : مغلوبا على عقله بالسحر .

يستطيعون : يهتدون .

اعتدنا : أعدنا .

سعيراً : نار شديدة الاشتعال .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نفق على تطاول المشركين على مقام الخالق - جل وعلا .

٢ - أن نفق على تطاول المشركين على رسول الله ﷺ .

٣ - أن نتعرف على تفاهة ما يقترحه المشركون من أعراض الحياة الدنيا .

المحتوى التربوي :

مع ما ينكشف للعلم البشري يوما بعد يوم من تقدير الله العجيب في الخلق ، وتديره الدقيق في الكون ، فإن المشركين لم يدركوا شيئا من هذا كله ، واتخذوا آلهة مجردة من خصائص الألوهية فهم لا يخلقون شيئا ، والله خلق كل شيء ، وتلك الآلهة تصنعها عبَادُها إن كانوا أصناما ويخلقهم ويوجدهم الله إن كانوا ملائكة أو جنا أو بشرأ أو شجرأ أو حجرأ ، ولا يملكون لأنفسهم فضلا عن أن يملكوا لعبادهم ضرأ ولا نفعا .

والذى لا يملك لنفسه النفع قد يسهل عليه الضر ، ولكن حتى هذا لا يملكونه ، ولا يملكون إماتة حى ، ولا إنشاء حياة ، ولا إعادتها داخل في مقدورهم ، فإذا لهم بعد ذلك من خصائص الألوهية ، وما شبهة أولئك المشركين في اتخاذهم آلهة ؟ !

وبعد عرض هذا التطاول على مقام الخالق جل وعلا ، يعرض تطاولهم على رسول الله ﷺ ويرد عليه عقب عوضه بما يظهر سخفه وكذبه ، فما يمكن أن يخفى على كبرائهم الذين يلقونهم هذا القول أن القرآن الذى يتلوه عليهم محمد ﷺ شئ آخر غير كلام البشر ، وهم كانوا يحسون هذا بذوقهم فى الكلام ، وكانوا لا يملكون أنفسهم من التأثر بالقرآن ، ثم هم كانوا يعلمون عن محمد قبل البعثة أنه الصادق الأمين الذى لا يكذب ولا يخون ، فكيف به يكذب على الله ، وينسب قولاً لم يقله ؟

ولكنه العناد والخوف على مراكزهم الاجتماعية المستمدة من سيادتهم الدينية كان يجنح بهم إلى هذه المناورات يطلقونها فى وسط جمهور العرب بأن ما يقوله محمد كذب وافتراء ، واستعان على جمعه بقوم آخرين ، وهو كلام متهافت تافه لا يقف للجدل ، ومن ثم لا يجادلهم هنا ولا يناقشهم فى هذا القول المتهافت إنما يدمغهم بالوصف البارز الثابت وأن ما قالوه زور واضح الكذب ظاهر البطلان .

ثم يمضى السياق فى استعراض مقولاتهم عن الرسول ﷺ وعن القرآن ، ذلك لما وجدوا فيه من قصص الأولين التى يسوقها للعبرة والعظة والتربية والتوجيه ، فقالوا عن هذا القصص الصادق : أساطير الأولين وزعموا أن الرسول ﷺ طلب أن تكتب له لتقرأ عليه فى الصباح والمساء إذ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب - ثم يقولها هو بدوره وينسبها إلى الله ، ويجاب عليهم بأن الذى يملئها على محمد أعلم من كل عليم ، فهو الذى يعلم الأسرار جميعاً ، ولا يخفى عليه نبأ فى الأولين والآخرين ، فأين علم حفاظ الأساطير ورواتها من ذلك العلم الشامل ؟ وأين أساطير الأولين من السر فى السموات والأرض ؟ وأين النقطة الصغيرة من الخضم الذى لا ساحل له ولا قرار ؟

ثم يستطرد السياق فى عرض مقولاتهم عن رسول الله ﷺ واعتراضاتهم الجاهلة على بشرته ، واقتراحاتهم المتعنتة على رسالته ، ويأتى الاعتراض المكرور الذى رددته البشرية عن كل رسول ، كيف يمكن أن يكون فلان بن فلان ، المعروف لهم ، المؤلف فى حياتهم ، الذى يأكل كما يأكلون ، ويعيش كما يعيشون ، كيف يمكن أن يكون رسولا من عند الله يوحى إليه ؟ كيف يمكن أن يتصل بعالم آخر غير عالم الأرض يتلقى عنه ؟ وهم يرونه واحداً منهم من لحم ودم ، وهم لا يوحى إليهم ، ولا يعرفون شيئاً عن ذلك العالم الذى يأتى منه الوحي لواحد منهم لا يتميز فى شئ عنهم .

وهم لا يعلمون أنها الحكمة الإلهية تبدو فى رسالة واحدة من البشر إلى البشر ، واحد من البشر يحس إحساسهم ، ويتذوق مواجدهم ، ويعانى تجاربهم ، ويدرك آلامهم وآمالهم ، ويعرف نوازعهم وأشواقهم ، ويعلم ضرورتهم وأثقالهم ، ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم ، ويرجو فى قوتهم واستعلائتهم ، ويسير بهم خطوة خطوة ، وهو يفهم ويقدر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم ؛ لأنه فى النهاية واحد منهم ، يرتاد بهم الطريق إلى الله ، بوحى من الله وعون منه على وعاء الطريق .

وكان من اعتراضاتهم الساذجة الجاهلة أن هذا الرسول يمشى في الأسواق ليكسب رزقه ، فهلا كفاه الله ذلك ، وحياه بالمال الكثير عن غير كد ولا عمل ، والله لم يرد لرسوله ﷺ أن يكون له كنز ولا أن تكون له جنة ؛ لأنه أراد أن يكون قدوة كاملة لأمة ، ينهض بتكاليف رسالته الضخمة الهائلة ، وهو في الوقت ذاته يسعى لرزقه كما يسعى رجل من أمة ، فهو هو ذا رسول الله ﷺ يعمل ليعيش ، ويعمل لرسالته فلا أقل من أن ينهض كل أحد من أمة بنصيبه الصغير من تكاليف هذه الرسالة .

وما المال ؟ وما الكنوز ؟ وما الجنان ؟ حين يتصل الإنسان الفانى الضعيف بالله الباقي القوى ؟ وما هذه الأرض وما فيها ؟ بل ما هذا الكون المخلوق كله ، بعد الاتصال بالله خالق كل شيء ، وواهبه الكثير والقليل ؟ ولكن القوم ما كانوا يوم ذلك يدركون ، فاعترضوا بأنه رجل مغلوب على عقله ، وهى كلمة ظالمة فاحشة ، والرد عليهم يوحى بالتعجب من أمرهم : فقد شبهوك بالمسحورين مرة ، واتهموك بالتزوير مرة ، ومثلوك برودة الأساطير مرة وكله ضلال ، وبعد إدراك الحق ضلوا عن كل طريق للحق ، وكل سبيل للهدى ، ولو شاء الله لأعطاه أكبر مما يقترحون من هذا المتاع ، ولكنه شاء أن يجعل له خيراً من الجنات والقصور ، الاتصال بواهب الجنات والقصور ، والشعور برعايته وحياطته ، وتوجيهه وتوقيفه ، وتذوق حلاوة ذلك الاتصال ، الذى لا تقاربه به نعمة من النعم ، ولا متاع صغر أو عظم وشتان شتان لو كانوا يدركون أو يتذوقون .

يقول الإمام محمد أبو زهرة صاحب زهرة التفسير : « إن هذا بلا ريب نظرات ناس ماديين لا يؤمنون بالروح ، ولا بالمعاني الإنسانية العالية ، إنها يؤمنون بالمادة وحدها ، والعلو عندهم بالسيطرة الممكنة من لذائذ هذه الحياة ، إما بملك قاهر ، أو بمتع يلقيها إليهم ملوك قاهرون » .

ويكشف السياق عن مدى آخر من آماد كفرهم وضلالهم ، فهم يكذبون بالساعة ، ومن ثم لا يتخرجون من ظلم ولا افتراء ، ولا يخشون يوماً يلقون فيه الله فيحاسبهم على الظلم والافتراء ، ثم يكشف عن الهول الذى ينتظر أصحاب هذه الفعلة الشنيعة ، إنها السعير حاضرة مهياة ، وهو مشهد يزلزل القلوب الصلدة ، ويهز المشاعر الخامدة ، ويطلعهم على هول ما ينتظرهم هناك .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - على المسلم أن ينهض بنصيبه من تكاليف هذه الرسالة .

٢ - ألا نحقر الفقير لفقره ، وألا نسخر ممن هو أقل منا فى شيء ، فإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب .

٣ - الاتصال بواهب الجنات والقصور وتذوق حلاوة هذا الاتصال لا تقاربه نعمة من النعم .

معانى الكلمات :

تغيظاً : صوت غليان كصوت المتغيظ .

ثبورا : هلاكا .

ضلوا : زاغوا ، وتاهوا عن الطريق الصحيح .

نسوا : غفلوا .

بوراً : هلاكا .

صرفاً : منعا للعذاب .

نصرا : انتصارا لأنفسهم .

فتنة : ابتلاء وامتحان .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نستشعر رهبة العذاب في الدار الآخرة .
- ٢ - أن نعلم أن في ثواب الآخرة تعويضاً كبيراً عما يصيب الإنسان المؤمن في الدنيا من آلام .
- ٣ - أن نقف على خطورة طول العمر وسعة الرزق في مقابل نسيان ذكر الله تعالى .

المحتوى التربوي :

يقف بنا السياق أمام مشهد السعير المتسعة ، وقد دبت فيها الحياة ، فإذا هي تنظر فترى أولئك المكذبين بالساعة ، تراهم من بعيد ، فإذا هي تغيظ وتزفر فيسمعون زفيرها وتغيظها ، وهي تتحرق عليهم وتصعد الزفرات غيظاً منهم ، وهي تتميز من النعمة وهم إليها في الطريق ، مشهد رعب يزلزل الأقدام والقلوب ، فعن ابن عباس : « إن الرجل ليجر إلى النار ، فتزوى وتقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن : ما لك ؟ قالت : إنه يستجير مني ، فيقول : أرسلوا عبي ، وإن الرجل ليجر إلى النار ، فيقول : يا رب ؛ ما كان هذا الظن بك ؟ فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول : أن تسعني رحمتك ، فيقول : أرسلوا عبي ، وإن الرجل ليجر إلى النار فتشبه إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف » وهذا إسناد صحيح .

وما هم هؤلاء قد وصلوا ، فلم يتركوا لهذه الغول طلقاء ، يصارعونها فتصرعهم ، ويتحامونها فتغلبهم بل ألقوا إليها إلقاء ، ألقوا مقرنين ، قد قرنت أيديهم إلى أرجلهم في السلاسل ، وألقوا في مكان منها ضيق ، يزيدهم كربة وضيقا ، ويعجزهم عن التفلت والتملل ، ثم ها هم أولاء يسمعون جواب الدعاء ، يسمعون تهكما ساخراً مريراً : فلا تدعوا هلاكاً واحداً فهو لا يجدى شيئاً ، ولا يكفى شيئاً .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « وإنى أرى أن السعير شبهت بالإنسان الذى يرمى ويتغيظ ويزفر ، ويحس ويشعر ، إذا رأى شخصاً يريد عقابه ، فإنه يتغيظ ويزفر ، والمعنى أن السعير تستعد وتهب هائجة ؛ لمجىء العصاة إليها ، ويسمعون ما يشبه التغيظ والزفر من مكان بعيد » .

وفى هذا الموقف المكروب الرعب يعرض ما أعد للمتقين ، الذين يخشون ربهم ويرجون لقاءه ، ويؤمنون بالساعة ، يعرض فى أسلوب متهم كذالك ساخر: أذلك الكرب الفظيع خير؟ أم جنة الخلود التى وعدها الله للمتقين ، وخولهم حق سؤاله عنها ، وطلب تحقيق وعده الذى لا يخلف ، ومنحهم أن يطلبوا فيها ما يشاؤون ؟ وهل هناك وجه للموازنة ؟ ولكنها السخرية المريرة بالساخرين الذين يتناولون على الرسول الكريم .

ثم يمضى مستطرداً يعرض مشهد آخر من مشاهد الساعة التى كذب بها المكذبون ، مشهد أولئك المشركين ، وقد حشروا مع آلهتهم التى كانوا يزعمون ، ووقف الجميع عباداً ومعبودين أمام الديان يسألون ويحيون ، وما يعبدون من دون الله ، قد يكونون هم الأصنام ، وقد يكونون هم الملائكة والجن ، وكل معبود من دون الله ، وإن الله ليعلم ، ولكن الاستجواب هكذا فى الساحة الكبرى ، وهم محشورون أجمعين ، فيه تشهير وتأنيب ، وهو ذاته عذاب مرهوب ، والجواب هو الإنابة من هؤلاء الآفة ، الإنابة إلى الله الواحد القهار ، وتنزيهه عن ذلك الافتراء ، والتبرؤ لا من ادعاء الألوهية ، ولكن من مجرد أن يتخذوا لهم أولياء من دون الله ، والزراية على أولئك الجاحدين الجهال ، فهذا المتاع الطويل الموروث على غير معرفة بواهب النعمة ولا توجه ولا شكر - قد ألهاهم وأنساهم ذكر المنعم ، فانتهت قلوبهم إلى الجذب والبوار ، كالأرض البور لا حياة فيها ، ولا زرع ولا ثمار والبوار الهلاك ، ولكن اللفظ يوحى كذلك بالجذب والخواء ؛ جذب القلوب وخوار الحياة .

عندئذ يتوجه إلى أولئك العباد الجهال بالخطاب المخزى المهين : فقد كذبكم الذين عبدتم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنكم اتخذتموهم قرباناً يقربونكم إلينا زلفى ، وقالوا : بأنه ما ينبغى لأحد أن يعبدنا فإننا عبيد لك فقراء إليك ، ولا يقدرّون على صرف العذاب ولا الانتصار .

وبينا المشهد فى الآخرة يوم الحشر ، ينتقل السياق فجأة إلى المكذبين وهم بعد فى الأرض ، ذلك على طريقة القرآن فى لمس القلوب فى اللحظة التى تنهى فيها للاستجابة ، وهى متأثرة بمثل ذلك المشهد المرهوب .

والآن وقد شهدوا وشهد الرسول ﷺ نهاية الافتراء والتكذيب والاستهزاء ، ونهاية الاعتراض على بشرية الرسول وأكله الطعام ومشيه في الأسواق ، الآن يعود إلى الرسول ﷺ يسلبه ويؤسسه ؛ بأنه لم يكن بدعا من الرسل ، فكلهم يمشون على سواء ، فإذا كان هناك اعتراض فليس هو اعتراضا على شخصه ، إنما هو اعتراض على سنة من سنن الله ، سنة مقدرة مقصودة لها غايتها المرسومة ، وهى اختبار بعضكم ببعض ، وابتلاء بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصى ومن هو الصابر والذي لا يقوى على الصبر .

قال الزمخشري: « هذا تصيير لرسول الله ﷺ على ما قالوا واستبدعوه من أكله الطعام ، ومشيه في الأسواق بعدما احتج عليهم سائر الرسل ، يقول : وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم - أيها الناس - ببعض ، والمعنى أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم ويمناصبتهم لهم العداوة ، وأقاريلهم الخارجة عن حد الإنصاف ، وأنواع أذاهم ، وطلب منهم الصبر الجميل » .

ولو شاء الله أن يجعل الدنيا مع رسله فلا يخالفون لفعل ، ولكن أراد أن يبتلى العباد بهم ويبتليهم به » ، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار ، عن رسول الله ﷺ : « يقول الله : إني مبتليك ومبتل بك » ، وفي الصحيح : أنه خير بين أن يكون نبيا ملكا أو عبدا رسولا ، فاختار أن يكون عبدا رسولا .

وزيادة في التسلية في مجال طعن الكافرين يخبر الله تعالى بأنه عالم فيما يبتلى به وغيره ، بصير بالطباع والقلوب والمصائر والغايات ، وهذه الإضافة هنا « وَكَانَ رُؤُكَ » يحاؤها وظلها ونسبتها الرخية على قلب الرسول ﷺ في مقام التأسيه والتسلية والإيواء والتقريب والله بصير بمداخل القلوب .

وهى لمحة تصور الإناس اللطيف الذى يحيط به الله عبده ورسوله ، وكأنها يمسح على آلامه ومتاعبه مسحا رفيقا ، ويهدد قلبه ، ويفيض عليه من الثقة والطمأنينة ، فى مواجهة المعركة العنيفة مع البشرية الضالة الجاحدة ، وهى تجادل فى عنف وتشرد فى جموح ، وتتطاول فى وقاحة ما وتحجج عن الهدى الواضح الناطق المبين .

ما ترشدنا إليه الآيات تروياً :

١ - القيمة الحقيقية للإنسان ليست فيما يملك من مال من أهمها تمسكه بدينه وسلامه عقله وحسن تفكيره .

٢ - الدنيا دار ابتلاء والفلاح بالصبر والتحمل .

٣ - العاقل من يصبر على ما يصيبه ، ويثبت على إيمانه ، ليفوز بحسن الثواب فى الآخرة .

معاني الكلمات :

عتوا عتوا : تجاوزوا حد الظلم .

منشورا : متفرقا ذاهبا .

أحسن مقيلا : أحسن منزلا وماوى .

يا ويلنا : يا هلاكنا .

لثبت به فؤادك : لتقوى به قلبك .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن يعرف المؤمن قبح الكفر وأهله .
- ٢ - أن يستشعر المؤمن مشاهد يوم القيامة .
- ٣ - أن يستمر المؤمن في دعوته بخلصا واثقا نشيطا مضحيا .

المحتوى التربوي :

تبدأ هذه الآيات بذكر تطاولات المشركين وسفاهاتهم ، فهؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله ، ولا ينتظرون هذا اللقاء ، ولا تستشعر قلوبهم الخشية من الله وهم يستبعدون أن يكون الرسول بشراً بل ملكا ، وهم يطلبون رؤية الله . عز وجل . وهذا شأن الكفار دائماً ، فبالرغم من أنهم كالذرة التافهة .. التائهة في ملك الله وخلقه إلا أنهم عظم شأنهم في أنفسهم ، فاستكبروا وطفخوا حتى عجزوا عن تقديرها وتقديرها حقيقياً .

وتأتى الآيات بعد ذلك لتعلم الكفار بوزنهم الحقيقي على طريقة السخرية كما كانوا يتعاملون ، فالملائكة تعذبهم لا تبشرهم فيلجؤون للدعاء ، فلا يعصمهم ولا يمنعهم ، وحتى

أعمالهم الصالحة لا تنفعهم ؛ لأنه لا قيمة لعمل مفرد لا يتصل بمنهج ، ولا فائدة لحركة ليست حلقة من سلسلة ذات هدف معلوم .

ثم تلفت الآيات لجانب آخر وهم أصحاب الجنة وهم مستقرون مستريحون ناعمون في الظلال ، والاستقرار يقابل خفة الهباء المنثور ، والاطمئنان يقابل الفزع ، وهذه المقابلات لطمأنة المؤمنين الذين جاهدوا فنعمو بالظلال ، أما الكفار فطغوا فعذبوا ، حتى استغاثوا ولا مخرج لهم .

ويواصل النص القرآني زلزلة قلوب المشركين ، وتجسيم مصيرهم المخيف بأن النهاية ستكون مروعة ، فالسما تشقق بالغمام نتيجة الانفجارات المروعة ، وتنزل الملائكة - ملائكة العذاب إليهم ، ويعلم الجميع أن الملك لله الواحد القهار ، ويتحسر الكفار حتى يعرض الظالم على يديه ؛ لأن يبدأ واحدة لا تكفيه ، فيداول بين هذه وتلك لأنه في أشد حالات الندم ، وقمة التحسر أن يتراً من كل خليل خذله ، لأنه كان شيطاناً يضلّه ، أو كان عوناً للشيطان ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ وهذا السياق يعرض لأحوال يوم القيامة ، ومشهد الأسى والندم والأسف الذي يسيطر على الظالم نفسه ، أما المؤمنون فهم أصحاب الجنة يرون حسن مقيلهم وطيب مستقرهم ، فالدعاة يتحملون الآلام والتضحيات ، ويخافون ربهم في دنياهم فأمّنهم الله في آخرهم ، الظالمون بغوا وطغوا وركنوا إلى الظل الزائل فأفزعهم وأخافهم ؛ لأن الله لا يجمع على عبده بين أمنين وخوفين .

وبعد هذه الجولة في اليوم العسير يعود النص القرآني لمشهد الرسول مع قومه ، وهو يشكوهم بشكاية واحدة ﴿ يَرْبِّ إِنِّ قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ دعاء للبت والإنابة ، لأن ربه يعلم ، يشهد به لربه أنه لم يأل جهداً ، ولكن قومه لم يتدبروا ذلك ، وهذا شأن الدعاة يذلون أقصى الوسع والطاقة ، وعندما يشكون لا يشكون إلا لربهم ليثبتهم وليعينهم على ما نزل بهم من الملهمات .. وأى ملمة أشد وأتكى من هجر القرآن لا هجر قراءته فحسب ، بل هجر تدبره وهجر تطبيق أحكامه وتعاليمه ، والعمل به ، فلا يكفينا طبع المصاحف بالأغلفة اللامعة والأوراق المصقولة ، ووضعه بتسويق في مكان أنيق بل جاء القرآن ليكون منهاج حياة ليقودها إلى أقوم طريق .

وتأتى التسلية الربانية إزاء الدعاء النبوي بأن سنة الله في جميع الرسالات بأن لكل نبي أعداء يهجرون دعوته ، ويصدون عن سبيل الله . حتى يقوى عود الرسالات ، وكفاح أصحاب الدعوات للمجرمين الذين يتصدون لها - مهما كلفهم من مشقة وكلف الدعوات من تعويق - هو الذي يميز الدعوات الحقّة من الدعاوى الزائفة .

يقول صاحب الظلال : « لو كانت الدعوات سهلة ميسورة ، تسلك طرقاً ممهدة مفروشة بالأزهار ، ولا يبرز لها في الطريق خصوم ومعارضون ... لسهل على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة ، ولا اختلطت دعوات الحق ودعاوى الباطل ، ووقعت البلبلة والفتنة ، ولكن

بروز الخصوم والأعداء للدعوات هو الذى يجعل الكفاح لانتصارها حتما مقضيا ، ويجعل الآلام والتضحيات لها وقودا ، فلا يكافح ويناضل ، ويحتمل الآلام والتضحيات إلا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون ، الذى يؤثرون دعوتهم دعوتهم على الراحة والمتاع ، وأعراض الحياة الدنيا ، بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا فى سبيلها ، ولا يثبت على الكفاح المريب إلا أصلبهم عودا ، وأشدهم إيمانا ، وأكثرهم تطلعا إلى ما عند الله واستهانة بما عند الناس إن بروز المجرمين فى طريق الأنبياء أمر طبيعى ، فدعوة الحق تأتى لعلاج فساد ، ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون الذين ينشئون ويستغلونه ، فطبيعى أن يكونوا أعداء لدعوة الحق ، وطبيعى أيضا أن تنتصر دعوة الحق فى النهاية لأنها تسير مع خط النهاية .

ثم يأتى النص القرآنى باستعراض مقولة أخرى ، ويرد عليها وهو تمنى الكفار أن ينزل القرآن مرة واحدة وهذه المقولة نتيجة لتخطيط تفكيرهم وقبحه ، فإن القرآن منهج حياة يتعود المرء على تحمل تكاليفه شيئا فشيئا ، ومن جانب آخر لتثبيت قلب الرسول ، وإمداده بالحجة البالغة كلما فتحوا له بابا من الجدل .

يقول صاحب الظلال : « لقد جاء هذا القرآن ليربى أمة ، وينشئ مجتمعا ، ويقيم نظاما ، والتربية تحتاج إلى زمن وإلى تأثير وانفعال بالكلمة ، وإلى حركة ترجم التأثير والانفعال إلى واقع ، والنفس البشرية لا تتحول تحولا كاملا شاملا بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد ، إنما تتأثر يوما بعد يوم بطرف من هذا المنهج ، وتندرج فى مراقبه رويدا رويدا ، وتعتاد على تكاليفه شيئا فشيئا .. وهى تنمو فى كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح فى اليوم التالى أكثر استعدادا للاتفاع بالوجبة التالية ، وأشد قابلية لها والتذاذا بها . »

ما ترشدنا إليه الآيات تروبوًا :

١ - إن أعداء الدعوات الحققة لا ينفكون فى إلقاء الشبهات ، وأن على أصحاب الدعوة الرد عليها وتفنيدها .

٢ - بث الثقة والطمأنينة فى نفوس العاملين فى الدعوة فى أن لهم أجرا عند الله لا يقدره البشر : إن أجرى إلا على الله .

٣ - الحذر من بطانة السوء وشياطين الإنس والجن .

٤ - اتخاذ القرآن منهجا ودستورا والوقوف عنده بقراءته وتدبره وتحكيمه واتباع أوامره وتعاليمه .

٥ - أن يثق الداعية فى دعوته ، وألا ترهبه كثرة الأعداء وسطوتهم .

معاني الكلمات :

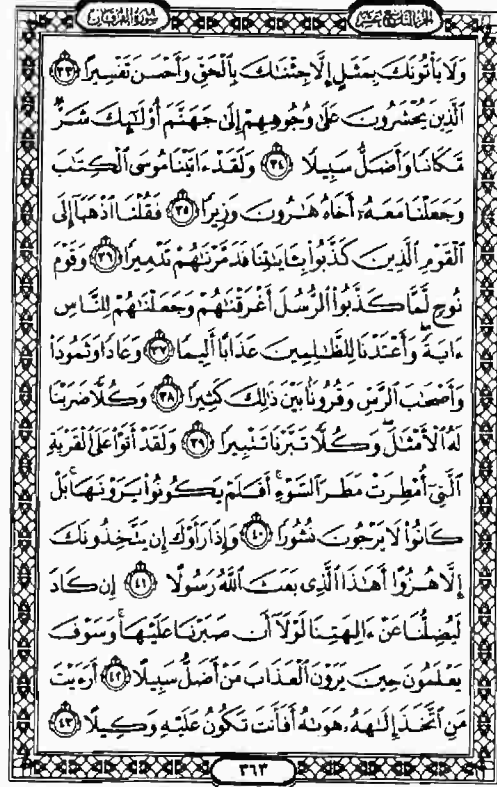
آية : عبرة .

تبرنا تنبيرا : أهلكنا إهلاكا .

هزوا : مهزوا به .

اتخذ إلهه هواه : اتبع هواه وميوله

الشخصية .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن يدرك المؤمن أمانته تبليغ الدعوة .

٢ - أن يعرف الداعية بعض نماذج للدعوات السابقة .

٣ - أن يدافع الداعية عن دعوته وقادتها .

المحتوى التربوي :

تتابع الآيات طمأنة قلب الرسول وتشيته بأن الكفار الذين يجادلون الباطل ، فانه يرد عليهم باطلهم بالحق الذي يدمغه ، وهذه سنة الله في أنه لا يترك الدعاة بل يمددهم بالعون والتأييد لنصرة الحق القوي بنفسه ، ليس لمجرد الانتصار في الجدل ، ولا الغلب في المحاجة .

يقول القاسمي : « إن تفريق الوحي وتمديد مدته بديهي الثبوت لمقدار مكث النبي ؛ إذ مادام بين ظهراني قومه ، فالوحي يتوارد تنزله ضرورة ، ومن راجع التوراة والإنجيل الموجودين ، يتجلى له ذلك واضحا لا مرية فيه ، وعذر القائل به ظنه أن الآية تعريض بنزول غيره كذلك ، وما كل كلام معروض به ، وإنما الآية حكاية لاقتراح خاص ، وتعننت متفنن فيه » .

وتنتهى هذه الجولة بمشهد الكفار يوم القيامة ، وأنهم يحشرون يوم القيامة جزاء تأييدهم على الحق ، وانقلاب مقاييسهم في جدلهم العقيم ، وهذا العقاب وما فيه من الإهانة والتحقير تعزية للرسول عما يلقاه منهم فإن كانت آذان الخلق قد سدت عن سماع دعوته ، فإن أبواب السماء قد فتحت لتلبية دعائه .

وتأتى الآيات بعد ذلك بأمثلة سريعة ترسم مصير المكذبين الذين عاندوا رسلهم ، لكن سنة الله في نصره الحق قائمة ؛ فموسى عليه السلام أرسل لفرعون وملئه ، وكان مع موسى أخوه هارون وزيراً ، فلم يرهبا فرعون وقوته وطغيانه ؛ لأن الله معهما يسمع ويرى ، ونصر الله الحق ودعوته ، وأدال الباطل وشيعته وأغرق فرعون ، وأغرق قوم نوح ، وأهلك عاد وثمود وأصحاب الرس وقرون أخرى كثيرة .

وهذا عقاب الدنيا عياناً أمام أصحاب الدعوات ؛ ليشتوا على الطريق أمام الجاحدين والظالمين ، وتنتهى الآيات بمصرع قوم لوط ، وهم يمرون عليه في سدوم في رحلة الصيف إلى الشام ، وقد أهلكها الله بمطير بركانى من الأبخرة وذكر سبب هلاكهم أنهم لا يرجون نشوراً ، وهذا سبب قساوة تلك القلوب وانطاماسها ، فإن الإيمان بالبعث والنشور يحرك القلوب نحو الخشية لله والعمل له .

ثم تتابع الآيات بذكر استهزائهم بالرسول رغم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ملء السمع البصر منهم ، وهو من ذروة بنى هاشم وهم ذروة قريش ، ولقب بالصادق الأمين ، وقالوا له وهو على جبل الصفا: أنت عندنا غير متهم ، فلما جاء هذا الاستهزاء ؟ ! يقول صاحب الظلال في ذلك : « كانت تلك خطة مدبرة من كبراء قريش للتصغير من أثر شخصيته العظيمة ، ومن أثر هذا القرآن الذى لا يقام ، وكانت وسيلة من وسائل المقاومة للدعوة التى تهدد مراكزهم ، وكل ذلك للحط من شأنه من نفوس أتباعه » .

إن شأن قريش في هذا شأن أعداء دعوات الحق ودعائها في كل زمان وفي كل مكان ، يكيلون الاتهامات والانتقاصات لرموز الدعوات وقادتها .

كل هذا والظالمون يعلمون كذب دعواهم وزيف أقاويلهم حتى يستبقوا لأنفسهم المنافع ، فتارة يرمونهم بخلط الدين بالسياسة ، ويتهمون الدعوة بالرجعية والتحجر ، ويعتبرون الالتزام تزمناً ، والاحتشام قيئاً وتحجراً ، أما الدعاة فيصبرون ويصابرون لأنهم يطلبون الأجر من الله .

ولا تتركنا الآيات دون أن نورد لنا اعترافاً من الكافرين بأثر الدعوة فيهم إلا أنه في سبيل الاحتفاظ بالمراكز والمغانم قاوموا تأثرهم بالدعوة وبشخصية النبي صلى الله عليه وسلم وبالقرآن وهديه ، وهم

في ضلالهم يسمون هداية الرسول لهم إضلالا ، والصد عن الدعوة صبراً ، وهذا يزيد في حماسة الدعاة ، فإن دعوتهم تصل لقلوب المستعدين للإيمان ، وتزلزل قلوب الظالمين ؛ حتى إنهم يعترفون بذلك مع تظاهرهم بالاستخفاف بشخصه ودعوته إصرارا وعنادا ، ولا ينتهى هذا الموقف دون أن نرى جزاء الصدد عن دعوة الله : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

كل ذلك ليرى الدعاة أن طريق الحق نهايته النجاة والفوز برضوان الله ، وأن طريق الصد هو طريق الشيطان الذى يتبرأ منهم فيعلمون حينئذ أنه طريق الضلال ولكن حين لا ينفع العلم .

ثم يأتى التعبير العجيب الذى يخفف عن الدعاة من جهة ، ويرسم نموذجا عميقا لحالة نفسية من جهة أخرى ، ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ ، فهو يخفف عن الدعاة فإنهم ليسوا بمسيطرين على المدعويين فهم يدعون ويذكرون ، أما من اتخذ إلهه هواه واتباع شهواته ، فالدعاة ليسوا بوكلاء عليهم ، ومن جهة ترسم نموذجا لحالة نفسية بارزة كما يقول صاحب الظلال : « حين تنقلب النفس من كل المعايير الثابتة ، والمقاييس المعلومة ، والموازين المضبوطة ، وتخضع لهواها ، فلا تخضع لميزان ، ولا تعترف بحد ، ولا تقتنع بمنطق ، متى اعترض هواها الطاغى الذى جعل منه إلهًا يعبد ويطاع » .

يقول الزمخشري : « من كان في طاعة الهوى في دينه ، يتبعه في كل ما يأتى ويذر ، ولا يتبصر دليلا ، ولا يصغى إلى برهان ، فهو عابد هواه وجاعله إله ، فيقول تعالى لرسوله : هذا الذى لا يرى معبودا إلا هواه ، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى ؟ أفتوكل عليه وتجبره على الإسلام ؟ وتقول لا بد أن تسلم ، شئت أو أبيت ، ولا إكراه في الدين » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - إن الظالمين لهم عقوبات في الدنيا ، وأعد لهم عذاب أليم في الآخرة ، وعلى الداعية أن يتبع تدريجيا هذا الأمر ، ويضرب للمدعويين أمثلة لذلك .

٢ - إن أشد الناس ابتلاء هم القادة بما يلقي عليهم من الشبهات ، وبما يحاك لهم من المؤامرات ، وعلى العاملين الثقة بقادتهم وإعانتهم في الحق الذى يرمون إليه .

٣ - إن مخاطب الدعوة كل الفئات ؛ لأن الحق دولته قائمة إلى قيام الساعة .

٤ - ألا يشق الدعاة على أنفسهم إذا دعوا ولم يستجب لهم ، فالدعوة مهمتهم وليس إيمان الناس ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٣) .

معاني الكلمات :

سبانا : راحة .

صرفناه : كررنا فيه العبر أو أنزلناه على

أماكن متنوعة .

مرج البحرين : أجراهما متجاورين .

ملح أجاج : شديد الملوحة .

حجراً محجوراً : حراماً محرماً .

ظهيراً : معينا .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن يدرك المؤمن بعض نعم الله في الكون .
- ٢ - أن يعرف الداعية الحكمة من نزول القرآن
- ٣ - أن يسلك الداعية مسلك القرآن في كل أموره .

المحتوى التربوي :

تأتى هذه الآيات ، وفي بدايتها احتراز من جمع الكل في سلة واحدة ، فالتعبير القرآني فيه التحرز والإنصاف ؛ لأن قلة من الكفار تجنح إلى الهدى ، وفي هذا تعزية للدعاة بأن هذا واجبهـم ، لأن الله لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً .

يقول صاحب الأساس : « دلت الآية على أن من أطاع هواه فيها يأتي ويذر ، فهو عابد هواه وجاعله إلهه ، ومن ثم بين الله لرسوله ﷺ هذا الذي لا يرى معبوداً إلا هواه ، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى » .

والكفار حين يبعدون عن الهدى ينحطون لدرجة البهائم ، وما الفرق بين الإنسان والبهيمة إلا بالتدبر والإدراك الذى أودعه الله إياه ، وإن الأمانة التى أبت الجبال والسموات والأرض أن يحملنها وقبلها الإنسان كان سلاحه فيها العقل والإدراك فهم عندما ينفقون عقولهم ، فقد تساوا بالأنعام والجمادات بل أضل سبيلا وطريقا ، وفى هذا عبرة للدعاة والعاملين أنهم يتبعون منهج العقول المستنيرة ، والبصائر الوضيئة .

ثم تترك مقولات المشركين وجدالهم مع الرسول ، لنبدأ جولة فى الكون وآفاقه الواسعة حيث مشهد الظل اللطيف ، ويد الله تمدّه ثم تقبضه فى يسر ولطف إلى مشهد الليل وما فيه من نوم وسبات ، والنهار وما فيه من حركة وانبعاث إلى مشهد البحرين الرياح تبشر بالرحمة ثم يعقبها الماء المحيى للموات إلى مشهد الفرات والأجاج ، وبينهما برزخ يمنعهما ويحجز بينهما فلا يختلطان ، ومن السماء إلى ماء النطقة .

يقول صاحب الظلال فى تعليقه على ذلك : « فى خلال هذه المشاهد الموحية يوقظ القلب ، وينبه العقل إلى تدبر صنع الله فيها ، ويذكر بقدرته وتدبيره ، ويعجب معه إشارك المشركين فى عبادتهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، فهو تصرف عجيب فى وسط هذا الحشد المعروض من آيات الله ، وهذا تنوع فى عرض الدعوة تارة بالخطاب العقلانى ، تارة بذكر العذاب الأليم للأمم السابقة ، وتارة بذكر مشاهد الكون البديع وقدره الله فيها - فمشهد الظل الورىف يقع كاليد الآسفة الرحمة على الرسول فى مكة ، ومع قلة من المؤمنين يواجه كثرة من الكفار خاصة أنه لم يؤذن له بعد فى مقابلة الاعتداء بالاعتداء .

ثم يأتى مشهد الليل السائر والنوم الساكن ، والنهار ما فيه من حركة ونشور ، فالنوم هو الموت الصغير ، فالبشر يتنبهون وينامون والله لا يغفل ولا ينام ، ومشهد نزول الأمطار يلقى على الحياة ظلا خاصا ظل الطهارة ، فالله سبحانه أراد الحياة طاهرة نقية ، وهو يغسل وجه الأرض بالماء الطهور الذى ينشئ الحياة فى الموات ويسقى الأناسى والأنعام والمتجبرون الذين يهددون الدعاة بقطع أرزاقهم ، ومصادرة ممتلكاتهم ، هم أنفسهم لا يملكون شيئا وهم يعيشون فى فيض النعيم الإلهى ولكن لم يذكروا ، وعلى الدعاة ألا يقتطوا ؛ لأن سنة الله : ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝ ﴾ .

والتعقيب القرآنى بعد ذلك يبين ضخامة المهام التى كلف بها الرسول ، فلأن الكثرة ضالة مع أن دلائل الإيمان حاضرة ، ولو شاء الله لبعث فى كل قرية نذيرا ، لكنه عز وجل . اختار لها عبدا واحدا ، وكلفه بإنذار القرى جميعا ، لتتوحد الرسالة الأخيرة ، فلا تتفرق على السنة الرسل فى القرى ، والمعين على هذه المشقة هو القرآن بها فيه من القوة والسلطان ، والتأثير العميق ،

فالقرآن هو سلاح الداعية يطبقه ويجعله خلقه ، والجهاد بالقرآن ينبغى أن يكون جهاداً كبيراً ؛ لأنه الحق أمام شهوات النفس ، وفساد المجتمعات فهو قوة لا يقف لها كيان البشر ، ولا يثبت لها جدال أو مجال .

قال أبو السعود : « وهذه الآية من أصرح الأدلة في وجوب مجادلة المبطلين ، ودعوتهم إلى الحق بقوة ، والتفنن في محاجتهم بأفانين الأدلة ، فإن الحق يتضح بالأدلة ، كما أن الشهور تشتهر بالأهلة » .

ثم يأتي السياق القرآني ، فبعد مشهد الرياح يأتي مشهد البحار العذبة والملحة ، وما فيه من التقدير الحكيم والصنع البديع ، فالبحران الفرات العذب والملح الأجاج يلتقيان ولا يختلطان ، ومستوى مياه الأنهار أعلى من مستوى سطح البحر للحفاظ على حياة الناس والأنعام والنبات ، وهي ليست مصادفة بل أنشأ الكون لغاية ، ومن ماء السماء وماء البحر وماء النهر ينتقل إلى ماء النطفة الذي تنشأ منه الحياة البشرية ؛ لأن كل ما ذكر من الآيات مسخرة للإنسان ليقوم بأعباء الرسالة وتكاليف الدعوة .

ويأتي التعبير القرآني بعد ذلك باستنكار الكفر الذي يتنافر مع الفطرة ، فالكافر وهو صغير تافه يعلن حرباً على مولاه وربّه ، وهنا يظهر قبح جحود النعمة وكفرانها وتسليّة للدعاة ، فالظالمون حاربوا الله ورسوله ، فليس بدعاً أن يحاربوا الدعاة ويبارزوهم العداوة ويلصقوا بهم التهم الباطلة ويظاهروا الشيطان على معصية الله ويعينه .

قال ابن كثير : « يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك لهم ضمراً ولا نفعا ، بلا دليل قادهم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه ، بل بمجرد الآراء والتشبهى والأهواء ، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم ، ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم » .
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - عرض الأدلة الحسية بتنسيق في مكانها وزمانها بالتدبر قد يكون أفضل من المواعظ والدروس .

٢ - الجهاد بالقرآن يشمل جهاد السنان واللسان ، فالقرآن هو العدة والعتاد لكل مؤمن وداعية .

٣ - عدم موالاة الكفار وطاعتهم والركون إليهم ؛ لأنهم لا يضمرون إلا كل الشر ، وأن يحذر الدعاة منهم ويحذروا المدعويين منهم ومن أذنانهم وخططهم ووسائلهم ونشراهم ودورهم وأنديتهم ، والحذر من تقليدهم .

معاني الكلمات :

نفوراً : تباعداً عن الإيمان .

تبارك : تعالى وتعجده .

بروجاً : منازل للكواكب السيارة .

منيراً : مضيئاً بالليل .

خلقه : يتعاقبان .

غراماً : موجعا .

لم يقتروا : لم ييخلوا .

قواماً : وسطاً وعدلاً .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن يشعر المؤمن دائماً بقيمة الركون إلى الله والتوكل عليه .

٢ - أن يعرف المؤمن صفات عباد الرحمن .

٣ - أن يجتهد المؤمن في العبادة لله بمفهومها الشامل .

المحتوى التربوي :

تورد الآيات واجب الرسول هو التبشير والإنذار . كان هذا في المرحلة المكية ، أما في المرحلة المدنية فقد شرع القتال في المرحلة الأولى لا بد من إعداد الرجال المخلصين حتى يكونوا للمجتمع المسلم الذي يحكمه الإسلام ، ثم بعد ذلك لا بد من القتال لإزالة الموانع ، أمام حرية انتشار الدعوة ولحماية المؤمنين كي لا يكون فتنة ، وكى يكون الدين كله لله .

أما ثواب الدعوة فلا ينال من البشر ؛ لأن البشر لا يستطيعون ذلك فالثواب من الله ، فالدعاة يطلبون الأجر من ربهم ، ويتوكلون عليه ، ويصبرون على لأواء الدعوة فهم عاملون مخلصون عابدون مسبحون أوابون .

قال الإمام الشوكاني : « خص صفة الحياة إشارة إلى أن الحى هو الذى يوثق به ، ولا حياة على الدوام إلا الله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم ، فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم ، والتوكل اعتماد العبد على الله فى كل الأمور » .

ثم تأتى الآيات لبيان عظمة المتوكل عليه من خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ومع هذا يقابل الكفار ذلك برفض السجود لله استكباراً ، بل ويسألون : ما الرحمن ؟ ويقولون : ما نعرف الرحمن إلا ذاك باليامة يعنون به مسيلمة الكذاب ، فهذه صورة كريمة من صور الاستهتار والتناول ؛ تذكر للتهوين من وقع تطاولهم على الرسول والدعاة ، فلا يضجر الدعاة من ذلك ، فمن تجرأ على الذات العلية ، فلا يبعد أن يتجرأ على السائرين فى ركاب الدعوة . ويكون التعليم الإلهى بعد ذلك للرد على تطاولهم بتمجيد الله سبحانه وذكر نعمه فى جعل السماء مزينة بالنجوم وبالقمر المضيء وتعاقب الليل والنهار ، وهذا التعليم هو قمة الرد ، وذروة سنام الجدال بالحسنى ، ومقابلة التطاولات والسفاهات بالتوجيه للتأمل فى خلق الله وبديع صنعته .

ثم ينتقل السياق القرآنى بتناغم عجيب لذكر صفات عباد الرحمن ، وهم خلاصة البشرية فى كفاحها الطويل بين الهدى والضلال ، ولولا هم لهلكت الأرض ، فالبشر أهون على الله من أن يعبأ بهم ..

يقول الإمام محمد أبو زهرة فى زهر التفسير : « هذه الآيات الكرييات تصور صفات المؤمنين التى يتكون منها المؤمن الصادق وهى تجمع بين أمور ثلاثة من الصفات : أولها : الصفات الموجبة المكونة معنى الإيمان ، والتى هى خلال أهل الإيمان الذين تعلق الإنسانية بهم ، ولا يستعملون عليها ، وهى من أول الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ .

وثانيها : صفات سلبية ، وهى التى تبتدى من هذه الآية الأخيرة .

وثالثها : الذين يبتغون الحياة الزوجية بالطهر والعفاف ، وختم سبحانه الآية ببيان الجزاء الأوفى .

ومن صفات عباد الرحمن نهاراً :

- أنهم يمشون على الأرض هوناً . أى مشية سهلة ليس فيها تكلف .

- لا خيلاء ولا تماوت ، فالمشية تعبر عن الشخصية ، كان رسول الله إذا مشى تكفأً تكيفاً ،

وكان أحسن الناس مشية ، وأسكنها ، وهذه مشية أولى العزم والهمة والشجاعة .

- وهؤلاء الدعاة في جدلهم ووقارهم وقصدهم وقد شغلت نفوسهم باهتمامات كبيرة ، ولا يشغلون بالهم بحماقات الحمقى يصونون أوقاتهم : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ۖ ﴾ .. لما يشغلون هذا الوقت بما هو أهم وأرفع وأكرم من المهاترات .

أما ليلاً : فعباد الرحمن في عبادة مستمرة ، يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، يقومون لله وحده ، وهذا هو زادهم ؛ زاد التقوى الخشية من الله ، وتبلغ قمة الخشية أنهم مع عباداتهم خائفون مبتهلون متضرعون إلى الله في صرف العذاب عنهم ، وهذه العبادة حتى يتم التمهيد لتقبل القرآن ووعظه وإرشاده والعمل به كما جاء في سورة المزمل : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۖ ﴾ .

قال القاسمي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ ۖ ﴾ غراماً المراد من قولهم ذلك : فرعهم منها ، ووجلهم الشديد المستبغ لتمسكهم بالتقوى ، واعتصامهم بالسبب الأقوى لا مجرد قلقلة اللسان بلا تأثير من الجنان ، فإنهم لم يبتهلوا إلى المولى ويتعوذوا به من سعيها إلا بعلمهم بسوء حالها ، ومقتضى العلم بالشئ إيفاءه حقه والعمل بموجبه ، أما الانطلاق في الدعوة بدون زاد العبادة والتضرع فصاحبه كالدجاجة المذبوحة فهي نشاط ما قبل الموت .. موت الروح .

- ومن صفات عباد الرحمن أن حياتهم نموذج للقصد والاعتدال فلا إسراف ولا تقتير ، وكل منها يجدثان خلا اجتماعياً أو فحيس الأموال يحدث أزمات ، ومثله إطلاقها بغير حساب .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « النص الكريم يفهم منه يأمران : أحدهما : ألا ينفق في حرام قط ، وألا يفسن عن حلال موجود إلا تربية للنفس وتهذيباً ، وفطماً لها عن الشهوات ؛ ولذا كان عمر رضي الله عنه بعد من يطلب كل ما يشتهي مسرفاً .

الأمر الثاني : إن الإنفاق بين الإسراف والقتل يختلف باختلاف أحوال الأشخاص ، فإذا كان الرجل كسوباً عليه أن ينفق في الحلال والجهد بمقدار كسبه وطاقته مادام ينفق في مطلوب ، ومادام كسبه واسعاً ، ولقد قبل النبي ﷺ من أبي بكر كل موفر ماله ؛ لأنه تاجر كسوب ، يعرف مواضع الكسب والخسارة ، ولم يقبله من غيره . »

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - ألا ينتظر الداعية أجراً من دعوته بل يتوقع دائماً الإيذاء والصد .

٢ - أن يستعين الداعية دائماً بالله عن طريق الرحمن من التواضع والسكينة ، وقيام الليل ، والخوف من عذاب الله ، والاعتدال في النفقة ؛ ليكون قدوة لمن يدعوه .

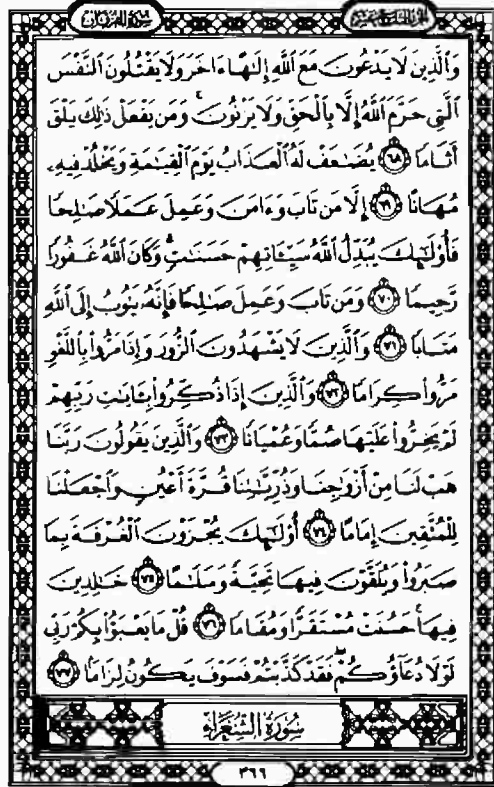
معاني الكلمات :

أثاماً : جزاء الإثم الذي ارتكبه .

اللغو : الكلام القبيح .

قرة أعين : ما تقر به الأعين .

يعبأ : يهتم ويبالى .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن يكره المؤمن الفواحش .
- ٢ - أن يعلم الداعية عقوبة مرتكبي الفواحش .
- ٣ - أن يتبع المسلم كل أمر يوصله لرضوان الله .

المحتوى التربوي :

بواصل السياق القرآني ذكر صفات لعباد الرحمن هي مفرق الطريق بين الحياة للإنسان الكريم على الله ، والحياة الرخيصة الهابطة لدرك الحيوان وهي كونهم يوحدون الله لا يشركون به شيئاً .

فهم يتخرجون فتوحيد الله أساس العقيدة ومفرق الطريق بين الوضوح والاستقامة والبساطة في الاعتقاد ، والغموض والالتواء والتعقيد ، الذي لا يقوم على أساسه نظام صالح للحياة .

والتحرج من قتل النفس - إلا بالحق - مفرق الطريق بين الحياة الاجتماعية الآمنة المطمئنة التي تحرم فيها الحياة الإنسانية ، ويقام لها وزن ، وحياة الغابات والكهوف التي لا يأمن فيها على نفسه أحد ولا يطمئن إلى عمل أو بناء .

والتحرج من الزنا هو مفرق الطريق بين الحياة النظيفة التى يشعر فيها الإنسان بارتفاع عن الحس الحيوانى الغليظ ، ويمحس بأن لالتقائه بالجنس الآخر هدفاً أسمى من إرواء سعار اللحم والدم ، والحياة الهابطة الغليظة ، التى لا هم للذكوران والإناث فيها لا إرضاء ذلك السعار .

ومن أجل أن هذه الصفات الثلاثة مفرق الطريق بين الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ، والحياة الرخيصة الغليظة الهابطة إلى درك الحيوان ، من أجل ذلك ذكرها الله فى سمات عباد الرحمن ، أرفع الخلق عند الله وأكرمهم على الله ، وعقب عليها بالتهديد الشديد ، والعذاب الويليل ، وليس العذاب المضاعف وحده ، وإنما هى المهانة كذلك ، وهى أشد وأتكى .

قال الإمام محمد أبو زهرة : « إن الله تعالى عدل ، يجازى السيئة بمثلها ، ورحيم يجازى الحسنة بعشرة أمثالها ، فكيف يجعل العقاب ضعف الذنب ، أجاب عن ذلك صاحب الكشف بأن المضاعفة لأنه عقاب الشرك ، وعقاب الذنب الذى ارتكب من قتل نفس وزنى ، ونقول حينئذ لا مضاعفة .

والذى يبدو لى - غير متناول على مقام الزمخشري : أن العذاب شديد عنيف حتى إنه ل يبدو لدى المعاقب ، كأنه مضاعف للذنب ، وإن المذنب دائماً يحس بالجزاء كأنه أكثر من الذنب ، فالله تعالى يصور له العقاب كأنه مضاعف ؛ ولأنه يتجدد آناً بعد آن ، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله تعالى جلوداً غيرها ، فهو عذاب بعد عذاب ، وبهذا التكرار الدائم يكون الدائم يكون كأنه مضاعف » .

ومع العقاب الشديد لمن يفعل هذه المنكرات ، فإن باب التوبة مفتوح دائماً ليدخل منه كل من استيقظ ضميره ، وأراد العودة والمآب ، ويوضح صاحب الظلال كيفية التوبة فيقول : « التوبة تبدأ بالندم والإقلاع عن المعصية ، وتنتهى بالعمل الصالح الذى يثبت أن التوبة صحيحة وأنها جدية ، وهو فى الوقت ذاته ينشئ التعويض الإيجابى فى النفس لئلا عن المعصية ، فالمعصية عمل وحركة يجب ملء فراغه بعمل مضاد وحركة ، وإلا حنت النفس إلى الخطيئة بتأثير الفراغ الذى تحسه بعد الإقلاع » .

ويعود البيان القرآنى لذكر صفة أخرى من صفات عباد الرحمن وهى أنهم لا يشهدون الزور لما فى ذلك من تضییع الحقوق والإعانة على الظلم وجعل الحق باطلاً والباطل حقاً .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ فهم يتجنبون حضور هذه المجالس .

يقول صاحب الظلال : « وقد يكون معناها الفرار من مجرد فى مجلس أو مجال يقع فيه الزور بكل صنوفه وألوانه ، ترفعا منهم عن شهود مثل هذه المجالس ، والمجاللات .. وهم كذلك يصونون أنفسهم واهتمامهم عن اللغو والهذر .. لا يشغلون أنفسهم به ، ولا يلوثونها بسماعه ، إنما يكرمونها عن ملابسته ورؤية بله المشاركة فيه ، فللمؤمن ما يشغله عن اللغو والهذر ، وليس لديه من الفراغ والبطالة ما يدفعه إلى الشغل باللغو الفارغ ، وهو من عقيدته ومن دعوته ومن تكاليفها فى نفسه وفى الحياة كلها فى شغل شاغل » .

ثم يستمر القرآن في ذكر سمات عباد الرحمن أنهم إذا سمعوا آيات ربهم آمنوا به ، ولم يكونوا كالصم والعميان؛ بل إنهم في تحمسهم لعقيدتهم تحمس العارف المدرك البصير، لا تعصبا أعمى، ولا انكبابا على الوجوه هم - كما قال قتادة - قوم عقلوا عن الله ، وانتفعوا بما سمعوا عن كتابه .

وإزاء الشعور بحلاوة الإيمان يتمنى عباد الرحمن أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم ، وأن تكون لهم أزواج من نوعهم فقرهم عيونهم ويقول صاحب الظلال : « هذا هو الشعور الإيماني العميق : شعور الرغبة في مضاعفة السالكين إلى الله وفي أولهم الذرية والأزواج ، فهم أقرب الناس تبعة ، وهم أول أمانة يسأل عنها الرجال » .

﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أي : هداة دعاء إلى الخير ، فينبغي أن يحس المؤمن أنه قدوة للخير ، يأتم به الراغبون في الله ، وليس في هذا من أثره ولا استعلاء ، فالركب كله في الطريق إلى الله .

ثم تصل الآيات لبيان جزاء عباد الرحمن الذين أخلصوا مع الله في الجنة في أجل أماكنها، فهؤلاء هم الكرام يستقبلون بالتحية والسلام جزاء على ما صبروا ، لأن هذه العزائم تحتاج إلى الصبر على شهوات النفس ومغريات الحياة ودوافع السقوط ، فجزاه الله بالجنة خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً لهم .

وتختتم السورة بختام يناسب موضوعها للتسرية عن رسول الله - ﷺ - وهي أن البشرية لا تزن شيئاً لولا دعاء عباد الرحمن له ، فهم صفوة أهل الله وخاصته ، ويقول صاحب الظلال : « إن الإنسان ليتنفخ ويتنفخ ويحسب نفسه شيئاً، ويتناول ويتناول حتى ليتناول على خالقه سبحانه! وهو حينئذ هين .. ضعيف ضعيف .. قاصر قاصر إلا أن يتصل بالله ، فيستمد منه القوة والرشاد . وعندئذ فقط يكون شيئاً في ميزان الله ؛ لذا فإن الكفار هم حطب جهنم ووقودها ، والمؤمنون ينتصرون وهم قلة ؛ لأن الإيمان أثقل قدرهم » .

ما نرشدنا إليه الآيات ترويضاً :

- ١ - إن باب التوبة مفتوح لكل تائب راجع إلى الله ، ويجب المسارعة إليها .
- ٢ - حرمة شهادة الزور وبيان أثارها الخطيرة ، وحرمة حضور محافل المنكر ، وأنذية الرذيلة ، واجتماعات اللغو والباطل .
- ٣ - وجوب تدبر آيات الله دائماً ، والعمل بها والتجاوب معها .
- ٤ - قيمة الصبر وفضيلته في نيل رضوان الله وجزاءه من ربه .
- ٥ - إن علاقة الإنسان بربه وعبادته لله هي شرفه وعزه وقيمته الحقيقية ، أما الكافر والمعرض عن ربه فلا وزن له .